أقوال العرب ومؤلفاتهم
في خصــائص الشعوب والبلدان

الدكتور صالح أحمد العلي
رئيس المجمع

المدن وخصائصها في العالم الاسلامي :

وحّدت الدولة الاسلامية البلاد الواسـعة التي إنضوت تحت لوائهـا وازالت الحواجز القديمة التي كانت بين الدول المتعادية قبل الاسلام ، كمـا زعزعت النظم الاقطاعية الجامدة ، ونشرت الحرية التي ارتكزت عليها المبادىء الاسلامية وتشبعت بها الهيئـة الموجهة للحكم من الخلفاء والولاة والقـواد العرب ومستشاريهم ، فاباحت بموجبها حرية العمل والتنقل ، وأدت هـذه الحرية والاختلاط الى تمازج مختلف النظم والحضارات ، والى اضـعاف التقاليد المحلية الناجمة عن العزلة .

غير أن تنوع الأحوال والظروف الطبيعية ، وتباين المصالح بين مختلف الأقاليم والأماكن ، وضعف سبل المواصلات والاتصال أدى على مر الزمـن الى بروز خصائص محلية لبعض الاقاليم ، كما ان عدداً من الدوافع السياسية والاجتماعية دفعت بعض هذه الامـاكن الى التفاخر بخصائصـها التاريخية او الطبيعية ، وزاد من قـوة ظهور هـذه الخصـائص محدودية حـرية التنقل والتجارات التي تعين على انتشار المعرفة بتلك الخصائص .

مصادر المعلومات :

وترجع الأصول الأولى لملاحظة هذه الخصائص الى السنوات الاولـى لتكوّن الدولة الاسلامية حين كانت تـرد وفود الامصار الى الخليفة فتعرض أحوال أهلها ، أو تقدم السلع الى الامصار الرئيسة .

ان اول ما روي لنا عن خصائص المدن هي ما ذكرته الوفود ، كذكر وفد البصرة لعمر الأحوال الضنكة لمدينتهم ، أو وصف الخليفة عمر للكوفة تقديراً لأهلها وحثا على الهجرة اليها ، أو وصف بعض الولاة خصائص الأقاليم التي

ولوها ، كوصف عمرو بن العاص لمصر ، هذا فضلا عن رغبة بعض الخلفاء معرفة خصائص الأقاليم والاستفسار عنها كالذي فعله عمر بن الخطاب مع كعب الأحبار .

وقد أدى استقرار الأمصار الى نمو روح الجماعة بين أهلها والى شعورهم بمصالحهم الخاصة المشتركة ، والى طابعهم الخاص المميز لهم عن أهل الامصار الاخرى بالرغم من تشابه أصولهم القبلية والنظم السائدة فيهم . وأبرز ما ظهرت فيه بين الكوفة والبصرة اللتين كان لكل منهما موقف سياسي يخالف الاخرى ، فان أهل الكوفة قاموا بدور كبير في فتوح العراق التي حدثت في خلافة عمر ، وساهموا في المعارضة للخليفة عثمان ، وأيدوا الامام علي الذي اتخذ الكوفة قاعدته ، أما البصرة فلم يقم أهلها بفتوح كبيرة في أوائل خلافة عمر بن الخطاب ، ثم ازدادت فتوحهم في أواخر خلافة عمر وفي خلافة عثمان ، ثم صارت مركزا لتحدي الخليفة علي الذي قضى عليهم في موقعة الجمل ، ولم يكونوا متحمسين في تأييده ، وكانوا من حيث العموم عثمانية واسهموا في القضاء على المختار في الكوفة .

المؤلفات في الخصائص :

وعندما نشط التأليف والتدوين عند العرب والاقاليم ، كان مما عنوا به تدوين ما تتميز به بعض المدن والأقاليم وعنونوا مادونوه عناوين متعددة، منها «خصائص» و «فضائل» و «مفاخر» و «مثالب» ، ولكل من هذه التعابير مدلول لغوي خاص استخدمه العرب للدلالة على ما يقصدوه ؛ فكلمة « خصائص » تدل على صفات خاصة تتسم بها المدينة أو الاقاليم ولا يشترط ان تتفرد بها وحدها ، وكلمة « فضائل » يقصد بها ما تميزت به المدينة وخاصة بما يتصل بالدين كقدسية أرضها أو من أنجبتهم من المعنيين بالدين ، أما «المفاخر» فهي وصف لما تميزت به على غيرها من أمور جيدة ، و «المثالب» هي ذكر للعيوب .

ويتصل بهذا الميدان ما روي من«مفاخرات»بين اكثر من مكان تذكر فيه خصائص المكان وميزاته ويشار الى عيوب المكان الاخر ونقائصه •

والجوانب التي تذكر في هذه المدونات تعبير عن المثل العليا المقبولة عند الناس ، وهي بلا ريب غير ثابتة وانما منوعة ومتطورة ، وقد لا تقتصر على جانب واحد ، فتشمل عدة جوانب ، فقد تشمل خصائصها الجغرافية وأرضها ، ومنتوجاتها ، ورجالها ، واسهامها في الفكر والحضارة ، أو في المصنوعات التي تنتجها ، وهي تعبر عن الاوضاع القائمة عندما ابديت عليها الملاحظات ، ولذلك فان تحديد مصدر القول وتعيين زمنه هو أمر مهم ، علما بأن كثيراً من المظاهر التي ذكرتها النصوص استمرت أمداً غير قصير •

والابحاث في خصائص البلدان ليست مرادفة لخصائص الشعوب ، فأن هذه تبحث في الشعوب حيثما كانوا ، فهي لاتقتصر على مدينة أو تنحصر في مكان ، اما خصائص المدن والاقاليم وترتكز على المكان وتبحث ما تميز به من منتوجات ومصنوعات ، ويتطرق بعضها الى خصائص أهله ورجاله المتأثرة بالأحوال الاقليمية وليس بالموروثات العرقية ، غير أنها في تطرفها الى ذلك تدرسها ضمن نطاقها العام للمكان ، وبذلك تتميز عن دراسة مفاخر الأفراد أو مثالبهم والجماعات التي تدرس لذاتها وليس لصلتها بالمكان •

تعبر مدونات الخصائص عن « الاقليمية ، وعن تميز كل منطقة من مدينة أو اقليم بسمات معينة على اختلاف أهلها عن الأحوال في المناطق الأخرى ، وأغلبها تعبر عن التباين والتنافس المحلي السلمي •

وصلتنا نصوص غير قليلة ، بعضها مقتصر على خصائص مدينة معينة ، وبعضها مقارنات بين مدينتين ، تذكر فيها خصائص كل منها ، وبعضها يجمع خصائص عدة مدن • وأغلب ما وردنا في ذلك يتعلق بما لأهل كل مدينة من مميزات خلقية ، أو ما تميزت به من منتوجات زراعية أو حيوانية أو صناعية ؟ وبعضها يذكر من اشتهر من علمائها ، ولاريب في أن هذه

المعلومات بالدانية ، غير أنها تنفرد بسمات خاصة تميزها عما كتبه البلدانيون والجغرافيون الذين ألفوا كتبا عامة ذكروا فيها أوصاف عدد من المدن وما تميزت به كل منها من أحوال طبيعية أو سكان أو منتوجات دون أن يقدروا أهمية هذه المنتوجات بالنسبة للعالم الاسلامي مما تهتم به النصوص التي ذكرت خصائص المدن •

ان بعض هذه النصوص يمكن تحديد تاريخه من معرفة قائلها أو أقدم مصدر ذكرها ، غير أنه يصعب تحديد عدد منها ، خاصة وأن المؤلفين العرب إهتموا بنقل النصوص المتقنة التي تروق لهم مع اغفال المصدر الذي نقلوا عنه، ولهذا الاغفال أثر في صعوبة تحديد تطور هذه الخصائص، فمن المعلوم ان المدن ، شأن أية مؤسسة أخرى ، تعرضت لتطورات واسعة من النمو والضمور، ومن ميادين الاهتمام ، ومعرفة القائل الاول للنص يحدد زمن ظهور هذه الخصائص التي قد لاتبقى ثابتة الى الأزمنة المتأخرة التي تنقل كتبها تلك النصوص من دون تحديد زمنها أو ماحدث عليها من تطورات تالية ، وأكثر ما روي عن العرب وصف أمصارهم وخاصة الكوفة والبصرة ، أما غير العرب فرووا بجانب ذلك خصائص مدن ايران وأقاليمها بجانب وصفهم لأحوال العرب•

وأغلب النصوص التي وردتنا قصيرة محكمة ، يذكر كل منها ما للمدينة أو المدن من خصائص بعضها مميزات وبعضها عيوب، ويرجع أقدمها الى أقوال نقلت عن أفراد أبرزهم الأحنف بن قيس ، وكعب الأحبار ، وابن القِرّية وخالد بن صفوان ومحمد بن عمير العطاردي وابي بكر الهذلي وابن عياش وقد نقل كثيراً من أقوالهم ابن قتيبة في كتابه «عيون الأخبار» والجاحظ في عدد من كتبه وخاصة كتابي « البلدان » و « البيان والتبيين » ، وابن الفقيه الهمداني في كتاب « البلدان » والنويري في كتاب «نهاية الارب» •

وردت في المصادر ثلاث مفاخرات في أقاليم المشرق ، هي مناظرة بغداد وهمدان ، وقد نقلها ابن الفقيه في كتابه «البلدان» (٢٢٧) ، والمفاخرة بين

بغداد وإصبهان وهي تكون قوام كتاب «حكاية ابي القاسم» التي ينسبها عبود الشالجي الى التنوخي ، ومفاخرة ابن زولاق بمصر في كتابه عن «الموازنة بين مصر وبغداد» •

أما المفاخرة بين الكوفة والبصرة ، فقوامها نصوص متفرقة تختلف في سعتها ومادتها ، منسوبة الى رجال من أهل المدينتين عاش جلهم في زمن الراشدين والأمويين ، وفيها معلومات زاخرة عن الأحوال العمرانية وعن اسهامها في الفتوح والحركات السياسية والفكرية ؛ وبالنظر لأهمية معلوماتها وتفرقها ، فقد رأينا ان نفردها بفصل خاص •

وذكر ابن النديم في كتابه «الفهرست» عددا من كتب فضائل البلدان ومنها «فضائل بغداد وصفتها» ليزدجرد بن مهبنداد (١٨٥) و «خصائص بغداد وأخبارها» لأحمد بن الطيب السرخسي (٣٦٦) •

وذكر أيضا «كتاب» مفاخرة أهل البصرة وأهل الكوفة للمدائني (١٥٢)، و «فخر أهل الكوفة على أهل البصرة» للهيثم بن عدي (١٤٦) ، وفضل المدينة على مكة (٢٣٨) ، و «فضائل مكة على سائر البقاع» لابي زيد البلخي (١٩٩) ، و«فضائل مصر» للجمحي (١٦١) وكافة هذه الكتب مفقودة ولم يشر اليها أحد سوى كتاب يزدجرد بن مهبنداد الذي نقل كثيرا منه ابن الفقيه في الفصل الذي كتبه عن بغداد في كتابه «البلدان» ، كما ألمح الى بعض محتواه ابن زولاق في كتابه عن فضائل مصر ، غير ان في مقدمات بعض كتب المدن نصوص عن خصائص المدينة موضوعة البحث ، كالذي نجده في تاريخ بغداد للخطيب ، وكتاب البلدان لليعقوبي و «فضائل اصبهان» للمافرخي ، و «أخبار أصفهان» لابي نعيم •

وذكر الطوسي في كتابه «الفهرست» كتابين عنوان كل منهما «فضل الكوفة» أحدهما لأحمد بن محمد بن عقدة الحافظ (٢٨) والثاني لعلي بن الحسين بن فضلة (٩٥) ، وذكر أيضا كتاب «فضل قم والكوفة» لسعد بن

عبدالله القمي (٧٥) •

وأورد كل من ابن الفقيه الهمداني في كتابه «البلدان» ، والخطيب البغدادي في المقدمة الخططية لكتابه « تاريخ بغداد » نصوصاً متشابهة عن بغداد وما قيل فيها من مدح وذم •

ونشير الى ما كتبه عن العراق وبغداد كل من اليعقوبي في كتاب البلدان، والخطيب البغدادي في مقدمة كتابه «تاريخ بغداد ، والاشارات التي ذكرها ابن ابي الحديد عن خصائص العراق في كتابه «شرح نهج البلاغة» •

وعن مصر يضم كتاب نشر بعنوان «فضائل مصر» منسوب الى الكندي، معلومات تطابق ما في كتاب منسوب لابن زولاق الذي ذكر ابن ظهيرة في كتابه «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة» ان ابن زولاق قال في كتابه الكبير في تاريخ مصر ، هذا كتاب عملت فيه عملا من عيون أخبار مصر وفضائلها وضيعها كتبت بالموازنة بين مصر وبغداد (٧١) وذكر ابن ظهيرة في مكانين من كتابه اسم كتاب ابن زولاق «الموازنة بين مصر وبغداد» (٣١ ، ٢٤٣) وقد نقل ابن ظهيرة عن ابن زولاق معلومات كثيرة عن مدن مصر ومنتوجاتها ، وهي معلومات لاتوجد في مخطوطة باريس من كتاب ابن زولاق ، وهي النسخة الوحيدة الباقية فيما أعلم •

بحث الجاحظ في كتابه (التبصر بالتجارة) منتوجات عدد من الأقاليم ، ومنها الجواهر النفيسة (٨-١٢) ، والطيب والعطور (١٢-١٣) والمنسوجة (١٤ - ٢٠) وما يجلب من البلدان من طرائف السلع والامتعة وبحث في كتاب « البلدان » الذي وصلنا مختصره عن فضائل قريش وآل أبي طالب ، ثم بحث في مكة ، والمدينة ، ومصر ، والكوفة ، والبصرة •

وبحث عدد من البلدانيين ، وأبرزهم اليعقوبي ، والاصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي ، وابن الفقيه • اقاليم بلاد العالم الاسلامي وكثير من مدنهم ، وتميز اليعقوبي باهتمامه في المدن ببحث خططها وتركيبها السكاني ،

وبذكر بعض منتوجاتها . غير أن المطبوع من كتاب اليعقوبي معتمد على نسخة فريدة ناقصة ، ولم تكتشف حتى الان مخطوطة اكمل منها ، او نصوص منقولة عنها وفيها معلومات تضيف الى المطبوع .

اما الاصطخري فقد وصف في كتابه « المسالك والممالك » اقاليم بلاد الاسلام وكثير من مدن كل اقليم ، وفيه اشارة الى منتوجات الاقاليم ، وصناعة وسكان بعض المدن التي ذكرها ، وكان كتابه معتمد ابن حوقل الذي نقل مادة الاصطخري مع اضافات عن الموصل والمغرب ، وقد ارتاب عدد من الأقدمين بصحة نسبة الكتاب الى الاصطخري ، وعزوه الى ابي زيد البلخي ، ولكن هذا لا يمس صحة المعلومات التي حددت فيه والتي تمثل الاحوال في اواسط القرن الرابع .

ونظم المقدسي مادة كتابه « أحسن التقاسيم » على اساس الاقاليم . وذكر معلومات غنية عن احوال ومنتوجات عدد كبير من الاقاليم والمدن التي وصفها .

اما ابن الفقيه فقد وصلتنا من كتابه « البلدان » نسختان غير كاملتان طبع احداهما دي غوية ، وطبع الثانية بالتصوير فؤاد سزكين عن اصلها الفريد المحفوظ في مشهد وتتفق النسختان في بعض المعلومات ، وتنفرد كل منهما بمعلومات عن خصائص بعض البلدان ، وخاصة البصرة ، والكوفة ، وبغداد ، وواسط ، وسر من رأى . وقد كشفت قطعة صغيرة منه في احدى مدن اسيا الوسطى ، كما نقل عنه ياقوت نصوصاً لا توجد في النسختين المطبوعتين .

ومع ان كتاب الفقيه في البلدان ، الا انه لم يرتب مادته تبعاً للاقاليم ، كما انه اورد معلومات واسعة عن خصائص الشعوب وبعض المدن والمناظرات الاولى بين بعض المدن ، وخاصة بين الكوفة والبصرة ، وبين بغداد وهمدان .

بحث ابن الفقيه في خصائص بعض الامم ومنها الروم والنوبة ، والبجة ، والترك ، والهند وبعض شعوب اوربا ، كما ذكر معلومات واسعة عن بعض

اقاليم ومدن العالم الاسلامي بما في ذلك مدن اقاليم المشرق ، والعراق ، وجزيرة العرب ، والمغرب واورد كثيراً من المفاخرات بين البصرة والكوفة ، وعجائب بعض المدن ، والمنتوجات الزراعية والصناعية ، وما يضاف وينسب الى بعض المدن والاقاليم ، وخصائصها*.

وبحث الثعالبي في « لطائف المعارف » خصائص ومحاسن ومساوىء عدد من أقاليم ومدن العالم الاسلامي ، كما بحث في كتابه « ثمار القلوب » ما خص به عدد من اقاليم ومدن العالم الاسلامي ، وخاصة مدن شبه جزيرة العرب ، وما خصت به بعض هذه الاقاليم والمدن من احوال ومنتوجات . ونقل فيما اورده ، كثيراً عن الجاحظ وخاصة من كتابه « البلدان » .

وبحث النويري في كتابه (نهاية الأرب) خصائص ومنتوجات عدد من الأقاليم ومعلوماته فيها تطابق تقريبا ماذكره الثعالبي في «لطائف المعارف» عنها مما يدل على ان الثعالبي كان مصدر النويري الذي لم يضف شيئاً على ما اقتبسه .

وخصص عمر بن الوردي في كتابه « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » فصلا في خصائص البلدان وذكر فيه خصائص كل من الشام ومصر واليمن والبصرة والكوفة وبغداد والاهواز وفارس وأصفهان والري وطبرستان وجرجان ونيسابور وطوس وهراة ومرو وبلخ وسجستان وبست وغزنة والهند وسمرقند والصين والتبت وخوارزم .

تباين خصائص أهل الآقاليم وتناقضها :

ترجع أقدم النصوص التي وصلتنا عن خصائص المدن والأقاليم الى زمن الخليفة عمر بن الخطاب وتنسب الى كعب الأحبار ، فقد ذكر النويري « ان

---

* انظر تفاصيل أوفى في كتاب « الأدب الجغرافي عند العرب » لكراتشوفسكي وكتاب الجغرافية البشرية للعالم الاسلامي « لميجيل » .

عمر بن الخطاب سأل كعب الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سكنتها ، فقال : ان الله تعالى لما خلق الاشياء جعل كل شيء لشيء :

فقال العقل أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنا معك

وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك

وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة وأنا معك[1] .

ونقل عن محمد بن حبيب ما يشبه هذا القول من دون أن يحدد قائله أو زمنه

فقال «لما خلق الله الخلق جعل معهم عشرة أخلاق : الايمان ، والحياء ، والنجدة ، والفتنة ، والكبر ، والنفاق ، والغنى ، والفقر ، والذل ، والشقاء.

فقال الايمان أنا لاحق باليمن ، فقال الحياء وأنا معك

وقالت النجدة أنا لاحقة بالشام ، فقالت الفتنة وأنا معك

وقال الكبر أنا لاحق بالعراق ، فقالت النعمة وأنا معك

وقال الغنى أنا لاحق بمصر ، فقال الذل وأنا معك

وقال الفقر أنا لاحق بالبادية ، فقال الشقاء وأنا معك[2] .

وروى المدائني ان الحجاج هو الذي قال : لما تبوأت الأمور منازلها

قالت الطاعة أنزل الشام قال الطاعون وأنا معك

وقال النفاق أنزل العراق قالت النعمة وأنا معك

وقالت الصحة أنزل البادية قالت الشقوة وأنا معك [3] .

يروى ابن الفقيه عن عمرو بن أوس أن عمر بن الخطاب أراد أن يقدم الى الكوفة فكتب اليه كعب الحبر : يا أمير المؤمنين لا تعجل فانه قد بلغني أن بها الداء العضال وبها تسعة أعشار الشر ، وبلغني أنه اذ كل شيء ينطق أجتمع ثمانية أشياء في واد . الايمان والحياء والهجرة والموت والفناء والعي

(١) نهاية الأرب ١/١٩٢ .
(٢) نهاية الأرب ١/٢٩٢ .
(٣) عيون الاخبار ٢٢٢٨ ، النويري ١/٩٢ .

والشقاء والصحة ، فقال بعضهم لبعض تعالوا نتصرف في الارض فتفرقوا في البلاد :

فقال الايمان أنا الحق بأرض اليمن ، فقال الحياء أنا معك

قال الهجرة أنا الحق بالشام ، قال الموت أنا معك

قال الغناء أنا الحق بأرض العراق فانها أرض واسعة ، فقال الغنى أنا معك .

قالت الصحة ما تركتم لي شيئا من البلاد الا وقد أخذتموه ، قال الحق بالبرية ، فقال الشقاء : أنا معك (٤) .

وروى المدائن عن عاصم في اسناد له بعض هذا القول ولم يوضح الاسناد فقال :

قال الطاعون لنا الحق بالشام ، فقال الخصب انا معك

وقال الجوع انا الحق بأرض البادية ، فقالت الصحة وأنا معك

وقالت النعمة أنا الحق بأرض العراق ، فقال السقم أنا معك (٥) .

اقتصرت بعض النصوص على ذكر ما تميزت به بعض الامصار وكان أقدمها متصوراً على أقاليم الحجاز والشام ، والعراق ، غير أن بعضها شمل خصائص الأمصار العربية ، ثم امتدت بعض النصوص لتشمل أيضا خصائص أقاليم بلاد العرب ، ثم الأقاليم المفتوحة .

ومن أقدم هذه النصوص ما رواه محمد بن حبيب عن ابن مورع الكلبي عن صعصعة بن صوحان ، حيث قال « دخل صعصعة بن صوحان العبدي على معاوية فقال له يا ابن صوحان أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فأخبرني عن أهل البصرة واياك والحمل على قوم لقوم ، قال : البصرة واسطة

(٤) البلدان ١٨٦ — ٧ .
(٥) التعازي ٨٢ ، ثمار القلوب ٥٤٧ .

العرب ، ومنتهى الشرف والسؤدد ، وهم أهل الخطط في أول الدهر وآخره وقد دارت بهم سروات العرب كدوران الرحا على قطبها » .

قال فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : قبة الاسلام ، وذروة الكلام ، وفطان ذوي الأحلام ، الا ان بها أخلاقاً تمنع ذوي الأمر الطاعة وتخرجهم عن الجماعة وتلك أخلاق ذوي الهيئة والقناعة .

قال اخبرني عن أهل الحجاز ، قال : أسرع الناس الى فتنة ، واضعفهم عنها ، وأقلهم عناء فيها ، غير أن لهم ثباتاً في الدين ، وتمسكا بعروة اليقين ، يتبعون الأئمة الأبرار ، ويخلفون الفسقة الفجار(٦) .

روى ابن الفقيه جواب ابن القرية على تساؤل الحجاج عن أقاليم جزيرة العرب وفيها بعض الاختلاف عما رواه ابن شاكر ، فذكر :

قال فأخبرني عن اليمامة ، قال : أهل جفاء وجَلَد وثروة وعدد وفرّ وكرّ

قال فأخبرني عن عمان : قال : حرّها شديد ، وصيدها عتيد ، وأهلها بهائم ليس بها رائم ،

قال فأخبرني عن البحرين : قال كناسة بين مصرين : كثيرة جبالها ، جهلة رجالها ،

قال فأخبرني عن مكة : قال : رجالها علماء ، وفيهم جفاء ، ونساؤها كساة عراة .

قال فأخبرني عن المدينة ، قال : رسخ العلم فيها ثم علا وانتشر في الآفاق

قال فأخبرني عن اليمامة ، قال:أهل جفاء وجَلَد وثروة وعدد ، وفرّ وكرّ

قال فأخبرني عن البصرة : قال : حرها شديد ، وماؤها مالح ، وحربها صالح ، مأوى كل تاجر وطريق كل عابر

---

(٦) مروج الذهب ٢/٣ .

قال فأخبرني عن واسط ، قال : جنة بين حماة وكنة تحسدانها ودجلة والزاب يتناوبان عليها

قال فأخبرني عن الكوفة ، قال : سفلت عن برد الشام ، وارتفعت عن حر اليمن ، فطاب ليلها وكثر خيرها

قال فأخبرني عن الشام ، قال : عروس في نسوة جلوس كلهن يزفنها ويرفدنها

وذكر أنه قال عن مكران « ماؤها وشل ، وتمرها دقل ، وسهلها جبل ، ان كثر بها الجيش جاءوا ، وان قلوا ضاعوا

وذكر ان خراسان « ماؤها جامد ، وعدوها جاهد ، وبأسهم شديد ، وشرهم عنيد (٧) .

ومما يرجع الى زمن الحجاج بن يوسف نص ينسب لزادان فروخ أجاب فيه الحجاج عندما قال له «اخبرني عن العرب والأمصار ، فقال اصلح الله الأمير : أنا بالعجم أبصر مني بالعرب ، قال لتخبرني قال فسل عما بدا لك :

قال أخبرني عن أهل الكوفة ، قال : نزلوا بحضرة أهل السواد فأخذوا من ضيافتهم وسماحتهم

قال فأهل البصرة ، قال : نزلوا بحضرة الخوز فأخذوا من مكرهم وبخلهم

قال فأهل الحجاز ، قال نزلوا بحضرة السودان فأخذوا من حمقة عقولهم وطربهم

فغضب الحجاج فقال له : اعزك الله لست حجازيا انما أنت رجل من أهل الشام

قال فأخبرني عن أهل الشام ، قال : نزلوا بحضرة الروم فأخذوا من ترفهم وصناعتهم وشجاعتهم (٨)

(٧) البلدان ٩٢ ــ ٩٣ .

(٨) البلدان لابن الفقيه ١١٤ .

ولعل هذا القول هو الذي نقله النويري دون ان يذكر مصدره فقال :

جاور أهل الشام الروم فأخذوا عنهم اللؤم وقلة الغيرة
وجاور أهل الكوفة أهل السواد فأخذوا عنهم السخاء والغيرة [٩]
وروى المدائني أن عبدالله بن عمر قال :
أهل الحجاز أسرع الناس الى فتنة
وأهل الشام أطوع الناس لمخلوق في معصية خالق
وأهل العراق أسأل الناس عن صغيرة ، وأركبهم لكبيرة ، يسألون عن قتل جرادة وقد قتلوا ابن بنت نبيهم[١٠] .

وروى عن سعيد بن عبدالعزيز وسليمان بن موسى قولهم : إذا كان علم الرجل حجازيا ، وخلقه عراقيا ، وطاعته شامية ، فناهيك به [١١] .

وأشار الجاحظ الى فقه الحجاز ، ودهاء العراق وطاعة اهل الشام[١٢] .
وقال سفيان بن عيينة : اذا أردت الحديث الصحيح الاسناد الجيد فعليك بأهل المدينة ، واذا أردت النسك فعليك بأهل مكة

واذا أردت المغازى فعليك بأهل الشام[١٣]
ويروى أن أبا جعفر المنصور قال لمالك :
وأما أهل الشام فأهل جهاد وليس فيهم كثير علم
وأما أهل الحجاز ففيهم بقية العلم ، وأنت عالم الحجاز[١٤] .
نسبت الى أيوب بن القرية أقوال أجاب بها الحجاج في وصف أهل

---

(٩) النويري ١/٢٩٥ .
(١٠) أنساب الاشراف ٥/٣٧٨ .
(١١) تاريخ دمشق ١/٣٠٨ .
(١٢) لطائف المعارف ١٥٩/٦١ ، ثمار القلوب ٢٤٦ .

أقاليم اسلامية ذكر فيها الأقاليم الأربعة التي ذكرتها المصادر السابقة ، وأضاف اليها ثلاثة أقاليم من الجزيرة هي عمان والبحرين واليمامة ، كما اضاف اليها الجزيرة وفارس ، فقال :

أهل الحجاز أسرع الى فتنة ، وأعجزهم عنها ، ورجالها حفاة ، ونساؤها كساة عراة

وأهل اليمن أهل سمع وطاعة ، ولزوم الجماعة
وأهل عمان عرب استنبطوا
وأهل البحرين نبط استعربوا
وأهل اليمامة أهل جفاء واختلاف اراء
وأهل فارس أهل بأس شديد وعز عتيد
وأهل العراق أبحث عن صغيرة ، وأضيعهم لكبيرة .
وأهل الجزيرة أشجع فرسان وأقتل للاقران
وأهل الشام أطوعهم لمخلوق ، وأعصاهم لخالق
وأهل مصر عبيد لمن غلب ، اكيس الناس صغارا ، واجهلهم كبارا

ان هذه النصوص تختلف في عدد الاقاليم التي ذكرتها ، وفي خصائص أهلها فرواية النويري قصرت على الشام ومصر ، والبادية ، ورواية ابن الفقيه أغفلت مصر ، وذكرت اليمن والعراق ، اضافة الى الشام والبادية ، ورواية ابن حبيب شملت اليمن ، والشام ، والعراق ، ومصر والبادية والصفات التي ذكرها ابن حبيب عشرة متناقضات لكل اقليم متناقضان .

ويتفق من ذكر البادية ان فيها الفقر والشفاء ، وان مصر فيها الغنى والذل ، واليمن فيها الايمان والحياء . اما الشام فان نص ابن الفقيه يذكر ان

---

(١٣) تاريخ دمشق ٣١٦/١ ، البلدان للهمذاني ٤٨٧ .
(١٤) تاريخ دمشق ٢٧١/١ .

فيها الهجرة والموت ، ونص النويري أن فيها العقل والفتنة ، أما ابن حبيب فينص ان فيها النجدة والفتنة .

وأما العراق فان نص ابن الفقيه يذكر ان فيه الغني والعي .

روى عن عبدالله بن عباس (رض) انه قال :(١٥)

ان الله تعالى خلق البركة عشرة اجزاء ، فتسعة منها من قريش ، وواحد في سائر الناس

وجعل الكلام عشرة أجزاء فتسعة منها في العرب وواحدة في سائر الناس
وجعل الغيرة عشرة أجزاء فتسعة منها في الاكراد وواحدة في سائر الناس
وجعل المكيدة عشرة أجزاء فتسعة منها في القبط وواحدة في سائر الناس
وجعل الجفاء عشرة أجزاء فتسعة منها في البربر وواحدة في سائر الناس
وجعل النجابة عشرة أجزاء فتسعة منها في الروم وواحدة في سائر الناس
وجعل الصناعة عشرة أجزاء فتسعة منها في الصين وواحدة في سائر الناس
وجعل الشهوة عشرة أجزاء فتسعة منها في النساء وواحدة في سائر الناس
وجعل العمل عشرة أجزاء فتسعة منها في الانبياء وواحدة في سائر الناس

وجعل الحسد عشرة أجزاء فتسعة منها في اليهود وواحدة في سائر الناس
وقسم البخل عشرة أجزاء فتسعة منها في الفرس وواحدة في سائر الناس
وقسم الكبر عشرة أجزاء فتسعة منها في الروم وواحدة في سائر الناس
وقسم الطرب عشرة اجزاء فتسعة منها في السودان وواحدة في سائر الناس
وقسم الشبق عشرة أجزاء فتسعة منها في اليهود وواحدة في سائر الناس

(١٥) النويري ١/٢٩٣ .

الاهتمام بخصائص البلدان في العصر العباسي :

تابع العباسيون الأوائل الاهتمام بخصائص الأقاليم ، فنقل الطبري عن اسحاق بن موسى بن عيسى قوله : حدثت عن عبدالله بن الربيع قال : قال ابو جعفر لاسماعيل بن عبدالله صف لي الناس فقال :

أهل الحجاز مبتدأ الاسلام وبقية الناس
وأهل العراق ركن الاسلام ومقاتلة عن الدين
وأهل الشام حصن الأمة وأسنة الأئمة
وأهل خراسان فرسان الهيجاء واعنّة الرجال
والترك منابت الصخور وأبناء المغازي
وأهل الهند حكماء استغنوا ببلادهم فاكتفوا بها عجابيهم
والروم أهل كتاب وتدين ، نجاهم الله من القرب الى البعد
والأنباط كان ملكهم قدرنجا فهم لكل قوم عبيد[16] .

ومن خصائص المدن أقوال في العصر العباسي الأول
فقال بختيشوع : تسعة لا تخلو من تسعة :
قمي من رعون ، ويماني من جنون ، وواسطي من غفلة ، وبصري من جدل ، وكوفي من كذب ، وسوادي من جهل ، وبغدادي من مخرقة ، وخوزي من لؤم ، وطبري من رزق[17].

وقال الجاحظ في كتاب الامصار :

(١٦) الطبري ٤٠٢/٣ — ٣ .
(١٧) النويري ٢٩٥/١ .

الصناعة بالبصرة ، والفصاحة بالكوفة ، والرقة ببغداد ، والعجائب بمصر[١٨] .

وقال ابو حامد القاضي : اعياني ان أرى خراسانياً ذكياً وطبرياً رزيناً ، وهمدانياً لبيباً وبصريا ركيكا ، وكوفيا رئيسا ، وبغداديا سخيا ، وموصليا لطيفا ، وشاميا خفيفا ، وحجازيا منافقا ، وبدويا ظريفا [١٩] .

وردت من العصر العباسي نصوص عن صفات أهل مدن واقاليم الهضبة الايرانية : ويذكرون بالذات او باسم البلد ومقصودهم أهلها .

فقد حكى عن الجاحظ انه قال : كنا نعلم في المكتب كما نعلم القرآ احذروا : حماقة أهل بخارى ، وغل أهل مرو ، وشغب أهل نيسابور ، وحسد أهل هراة ، وحقد سجستان . وقال في كتاب الامصار :

•• الطرمدة بسمرقند ، والغي بالري ، والجفاء بنيسابور ، والحسد بهراة ، والمرؤة ببلخ ، والبخل بمرو .

وكان يقال : أربعة لا تعرف في أربعة

السخاء في الروم ، والوفاء في الترك ، والشجاعة في النبط ، والغم في الزنج[٢٠] .

ونقل نشوان بن سعيد عن كتاب الأخبار للجاحظ كلاماً في خصائص الأمم ، فذكر أن أهل الحرف ليس فيهم تفاوت في الفهم والعقل والصناعة ولا معهما خش الخطأ وافراط النص مثل الذي تجد في أديانهم وفي عقولهم عند اختيار الاديان .

ثم ذكر اختصاص العرب في البيان ، واللغة ، وقيافة الاثر ، والشعر

(١٨) النويري ١/٢٩٤ .
(١٩) النويري ١/٢٩٤ .
(٢٠) النويري ١/٢٩٤ .

وصدق الحس وصواب الحدس وجودة الظن وبعد الفهم والمعرفة بمساقط النجوم والعلم بالأنواء وحسن المعرفة بما يكون منها للاهتداء ، كما أن لهم خط العربية ، والحفاظ لأنسابهم ، وانعدام العى فيهم ، وحرمة الامهات ، وروعة اللسان ، والبديهة ، والعجب بالخيل وايثارها وارتباطها[٢١] .

ثم ذكر خصائص اهل الهند في الحساب والنجوم والخط الهندي ، وفي الطب ، وحفظ التماثيل ، ونحت الصور مع التصاوير بالاصباغ ، والشطرنج ، وصفة السيوف ، وانواع من الرقص والخفة .

وخصائص الروم في الطب والحكمة والتنجيم وأصول اللحون وصنعة القرسطون وكيان الكتب والتصوير .

أما فارس فمعروفة بالسياسة وترتيب الامور والعلم[٢٢] .

(٢١) الحور العين ٢٢ ـ ٢٢٦ .
(٢٢) الحور العين ٢٢٧ ـ ٨ .

مفاخرات الكوفة والبصرة

تأسست الكوفة والبصرة في زمن متقارب ، وكان الغرض من تأسيسها ايجاد قاعدة لاقامة المقاتلة وعيالاتهم وأن تكون مركزا اداريا يرأسه أمير يمثل الخليفة الذي يوليه ، ويشرف على ادارة المناطق التي فتحها مقاتلة المصر .

والمقاتلة الذين استوطنوهما من عرب الجزيرة الذين احتفظوا بتنظيماتهم القبلية بعد تعديلها بما يناسب الأوضاع الجديدة من تثبيت سلطة الخلافة العليا ، والتوجه العام للفتوح وتثبيت الأمن والنظام ، وقد سكن في كل من الكوفة والبصرة أفراد عشائر واحدة من أهل الحجاز ، وتميم وبكر وعبدالقيس ، وحنيفة ، وكلها عشائر ديارها في الحجاز وفي هضبة نجد .

غير أن الكوفة تفردت عن البصرة بمن سكنها من طي ، وأسد ، وفزارة ، وتغلب ، وبجيلة ، وأزد السراة ، والعشائر اليمانية أما البصرة فتفردت بمن سكنها من أزد عمان ، علماً بأن عدد بني عبدالقيس فيها أكبر من عددهم في الكوفة .

وأدى استقرار العشائر في كل مصر الى تداخلات بينهما طغت على الخلافات القديمة ، وزاد في صهرهما إدراكهما أهمية عملها في توسيع الدولة الجديدة وتثبيتها وتوجيهها .

غير أن الظروف قضت بأن يضطلع أهل كل منهما بواجبات خاصة . فأهل الكوفة حملوا الواجب الأكبر في مقارعة جيوش الملك الساساني ، فدحروا تلك الجيوش ، وقضوا على ملك الساسانيين ، وبسطوا سلطان الدولة على العراق والأطراف الوسطى والشمالية من الهضبة الايرانية ، وعلى قسم كبير من أراضي الجزيرة الفراتية ، وقد اتموا هذه الأعمال الكبيرة في زمن خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان بن عفان . ويسّر لهم انجاز

ذلك أعدادهم الكبيرة منذ بدء القتال مع الفرس في زمن خلافة ابي بكر أوائل زمن خلافة عمر ، وجلب لهم موارد كبيرة من جباية الأقاليم التي فتحوها والتي كانت تصرف في عطاء المقاتلة • غير أن أعمالهم الحربية تناقصت في زمن خلافة عثمان •

وكانت كثرة سكانها والدور الكبير الملقى على مقاتلتها في الفتوح دافعا لان يصفها عمر «سيدة الأمصار وجمجمة العرب» ، ووصفها بأنها قبة الاسلام ، وقيل انها «كنز الايمان وجمجمة الاسلام وسيف الله ورمحه»[1] •

أما مقاتلة البصرة فكان عددهم في البداية أقل من عدد مقاتلة أهل الكوفة ، وكانت جبهتهم ثانوية ، غير أنه سرعان ما ألقى عليهم واجب فتح الأهواز ، ثم التوجه في زمن خلافة عثمان الى فتح أقاليم الهضبة الجنوبية بما فيها فارس وكرمان ومكران ، كما قاموا بفتح خراسان ، وقد تم ذلك بتزايد عدد المقاتلة في البصرة بمن هاجر اليها من مناطق الخليج العربي خاصة•

وكان تمايز جبهات فتوح كل من المصرين ، وادراك مقاتلتهما الواجب المطلوب منهما تحقيقه ، وكثرة الحركات الحربية من أسباب عدم حدوث احتكاك بين أهلهما •

غير ان الاستقرار والتمازج بين أهل كل مصر أوجد تفاهما خاصا بدأ يتغلب تدريجيا على الروابط القبلية ويميز كل مصر •

وقد بدأ أول احتكاك سياسي بين الكوفة والبصرة في معركة الجمل حيث اتخذت عائشة ومن كان معها البصرة قاعدة لهم ، وكان ذلك من اختيار عائشة وليس بدافع كره أهل البصرة لعلي ، وقد دفعت الأحوال أكثرهم لتأييد عائشة ، برغم ان فريقا منهم اعتزل ، وفريقا مال الى علي وقاتل في صفه •

---

(١) فتوح البدان ١٦٤/١٦٦ •

وقد اعتمد عليّ في القضاء على حركة عائشة ومسانديها على أهل الكوفة الذين انضم عدد منهم اليه بحكم كونه الخليفة المنتخب ، وليس لخصومة أهل البصرة ، غير أن الأحوال دفعت الى خلق خلاف بينهما . ومع أن أصحاب الجمل لم يحضوا بتأييد عام مطلق من أهل البصرة ، وانما وقف فريق منهم على الحياد ، وانضم اليه فريق آخر ، كما أن القتال كان بدافع كره علي ، الا أن الخليفة علياً خطب يهاجم أهل البصرة وكان مما قاله :

« يا أهل البصرة ، يا بقايا ثمود ، ويا جند المرأة ، ويا أتباع البهيمة ، رغا فاتبعتم ، وعقر فانهزمتم ، أما والله اني لا أقول رغبة فيكم ، ولا رهبة منكم ، غير أني سمعت رسول الله (ص) يقول : تفتح أرض يقال لها البصرة، أقوم الارضين قبلة ، قارؤها أقرأ الناس ، وعابدها أعبد الناس ، وعالمها أعلم الناس ، ومتصدقها أعظم الناس صدقة ، وتاجرها أعظم الناس تجارة . منها الى قرية يقال لها الابلّة أربعة فراسخ ، يستشهد عند مسجد جامعها أربعون ألفاً ، الشهيد منهم يومئذ كالشهيد معي يوم بدر » (٢) .

ووصفهم أيضاً « دينكم نفاق ، واخلاقكم رقاق ، وماؤكم زعاق » (٣) . وذكر أن البصرة « لتغرقن أو لتحرقن الا بيت مالها ومسجدها » .

وقد اتخذ الامام عليّ مقامه في الكوفة بعد معركة الجمل، ومع أنه قاتل معه في صفين عدد من أهل البصرة، وانخزع عنه عدد من أهل الكوفة ، وكونوا اعظم جيشه في الكوفة ، الا ان البلبلة التي حدثت بعد قبوله التحكيم أدت الى انشقاق عدد من أهلها عنه ، كما ان مقاتلته المنشقين من الخوارج، ضعفت فيهم الاندفاع القتال مع علي ، واستطاع معاوية أن يبسط سيطرته على مصر

(٢) عيون الاخبار ١/٢١٦ ، ابن الفقيه ١٧ (مخطوطة مشهد) .

(٣) عيون الاخبار ١/٢١٧ ، ابن الفقيه ١٧ (مخطوطة مشهد) .

والحجاز ثم اليمن وأدى ضعف حماسة أهلها في الاستجابة لدعوة علي في قتال معاوية الى استيائه منهم فخطب مقرعاً لهم وقال :

« ما هي الا الكوفة أقبضها وأبسطها ، ان لم تكوني الا أنت أعاصيرك فقبحك الله .. وتفرقكم عن حقكم وبمعصيتكم أما حكم فالحق .. وخيانتكم.. وفسادكم.. أللهم أني قد مللتهم وملوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيراً منهم ، وابدلهم بي شراً مني ، اللهم امت قلوبهم لما يمات المالح في الماء ، أما والله لعددت ان لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم »[٤] .

ولابد أن هذه الحوادث كان لها أثر في غلبة العثمانية على موقف أهل البصرة ، وغلبة العلوية على أهل الكوفة . مما وسّع شقة الخلاف بينهما ، ولكنه لم يؤثر في مجرى الحوادث السياسية ، لأن معاوية عمل على رأب الصدع وجمع «الجماعة» التي انضوى اليها المصران ، وتركزت المعارضة المسلمة في الخوارج ومنهم من أهل الكوفة والبصرة واهل الجزيرة .

وبعد وفاة يزيد حدث تفكك فيالوحدة التي عمل زياد وابنه عبيدالله على تثبيتها ، وبعد تطورات سيطر المختار على الكوفة باسم الشيعة ، واضطهد أشراف الكوفة ، وقرب الموالي ، فتزعزعت مكانتهم ولجأوا الى البصرة التي كان يحكمها مصعب بن الزبير باسم أخيه عبدالله ثم تقدم مصعب بجيش قوامه مقاتلة أهل البصرة ، وقضى على المختار وحركته ، وأعاد الوحدة السياسية الى العراق بمصريه البصرة والكوفة .

وشاركت كل من البصرة والكوفة في حوادث سياسية مشتركة أبرزها مقاومة الخوارج ، وتأييد حركة عبدالرحمن بن الاشعث . وتفردت الكوفة

---

(٤) شرح نهج البلاغة ١/ ١٨٠ .

بموقفها المؤيد لثورات العلويين من دون أن تسهم بدور فعال في أنجاحها ، فبالاضافة الى أنها كانت مقام علي بن ابي طالب ابان خلافته ، فان أهلها عرفوا بتأييدهم للعلويين ، وحب آل البيت واعتمد الحسين على التأييد الذي أظهروه له ، كما قام فيهم المختار باسم آل البيت ، واتخذ زيد بن علي الكوفة مكاناً له في ثورته على الامويين ، كما كانت الكوفة مركز الدعوة العباسية في مراحلها السلمية الاولى عندما كانت تدعو لجعل الخلافة في آل البيت . كما أن الجيوش العباسية بعد أن أفلحت في السيطرة على خراسان وتقدمت لانتزاع الخلافة من الامويين ، اتخذت مركزها في الكوفة ، ومنها أرسلت الجيوش للقضاء على الخلافة الاموية في الجزيرة الفراتية والشام ومصر ، وفي تصفية الأمويين في واسط ، وكان مقام أبي جعفر المنصور فيها العامل الأكبر في عدم توسع ثورة محمد النفس الزكية في العراق .

ومع أن كافة ثورات العلويين التي اعتمدت على تأييد أهل الكوفة لم تحض بالنجاح ، الا أن أهل الكوفة ظلوا معروفين بولائهم لآل البيت ، وكان هذا من أسباب نقل الخلفاء العباسيين مقرهم الى الأنبار ثم الى بغداد بعد أن أسسوها . علما انه لم يتخذ أي من أولاد علي وأحفاده الكوفة مقاماً له وان الحركة الفكرية في الكوفة ، ونمو علم الحديث فيها يظهر ان السيطرة في هذه الحركة كانت لأهل السنة ممن يتعاطف مع العلويين ولا يتعصبون لهم .

وظل أهل البصرة من حيث العموم منحرفون عن آل البيت ومؤيدون للعثمانية ، وقد وصفهم محمد بن ابراهيم الامام بأنهم « عثمانية تدين بالكف ، تقول كن عبدالله المقتول ولاتكن عبدالله القاتل »، ولم يعرف عنهم غير انضمامهم الى عبدالرحمن بن الاشعث عندما قدم البصرة ثائراً، وقد توجهت معارضتهم الى الخوارج الذين قاموا بحركاتهم خارجها ، واسهم البصريون في القضاء عليها ، علما بان مقاتلتهم تابعت اعمالها في القضاء على

الثورات وبالاسهام في الفتوح وخاصة في جنوب الهضبة الايرانية وفي السند ، كما أمدّوا المقاتلة في خراسان بالرجال .

المفاخرة في الفتوح

كان دور كل من أهل الكوفة والبصرة في الفتوح موضوعا في المفاخرات بينهما ، وقد أشار اليه ابن الفقيه في فصله الواسع عنهما ، فذكر مناظرة جرت في حضرة ابي العباس بين ابي بكر الهذلي، وكان بصريا، وابن عياش وكان كوفيا، ومناظرة اخرى بحضرة المأمون بين أحمد بن يوسف ، واحمد بن هاشم ، وأضاف الى ذلك أقوالا كثيرة وصف معالم كل منهما وأقوال في مدحهما وذمهما ، وتناولت أمورا كثيرة من خصائص كل منهما (٥) .

فخر الكوفيون في فتوحهم الاولى ، فقال ابن عياش في حضرة ابي العباس « نحن اعلم بالفتوح ، نحن نفينا كسرى عن البلاد وابرنا جنوده وابحنا ملكه وفتحنا الاقاليم (٦) .

ونقل الهمداني عن مصدر لم يذكر اسمه ، أن اهل الكوفة « قالوا : ولنا فتوح وأيام ، فمن فتوحنا الحيرة وبانقيا والفلوجتين ونستر وبغداد وعين التمر ودومة والأنبار ، وما فتحوا مع خالد بن الوليد في مسيرهم الى الشام ، المصيخ وحصيد وبشر وقراقر وسوى وأراك وتدمر، ثم شاركوا أهل الشام في بصرى ودمشق ، هذا كله في خلافة ابي بكر ، ثم كان من آثارهم في خلافة عمر يوم جسر أبي عبيد ويوم مهران ويوم القادسية ويوم المدائن وجلولاء وحلوان ، هذا كله قبل أن ينزلوا الكوفة ، ثم نزلوها ففتحوا الموصل وأذربيجان وتستر وماسبذان ورامهرمز وجرجان والاينور ؛ ولهم

(٥) ابن الفقيه ١٦٧ ؛ وانظر : الجليس الصالح للمعافي النهرواني ، ٤٤٦ .
(٦) ابن الفقيه ١٦٧ — ٨ .

مع أهل البصرة نهاوند ، ولهم بعض الري وبعض اصبهان ، ولهم طميس ونامية من طبرستان » .(7)

الأحوال الجغرافية :

وقد امتدت المقارنة بين البصرة والكوفة الى الأحوال الجغرافية لكل منهما . وأقدم نص وصل الينا في ذلك عن خصائص البصرة مع الماح الى مقارنتها بالكوفة هو قول الأحنف بن قيس عندما قدم في وفد أهل البصرة الى الخليفة عمر ، حيث قال « إن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفة ، وانا نزلنا سبخة نشّاشة لا يجف نداها ولا ينبت مرعاها : ناحيتها من قبل المشرق البحر الأجاج ، ومن قبل المغرب الفلاة ، فليس لنا زرع ولا ضرع ، تأتينا منافضا وميرتنا في مثل مرىء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة لذلك فتربق ولدها كما يربق العنز ، يخاف بادرة العدو وأكل السبع ، فالا ترفع خسيستنا وتجيز قافلتنا تكن كقوم هلكوا » .

فالحق عمر ذراري أهل البصرة في العطاء ، وكتب الى أبي موسى يأمره أن يحتفر لهم نهراً .(8)

وقد روى الطبري هذا الكلام بصيغة فيها بعض الاختلاف عما رواه البلاذري فقال « إن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الفاسقة من العيون العذاب والجنان والخصاب ، فتأتيهم ثمارهم ولم تخضد، وانا معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشّاشة زعقة نشاشة ، طرف لها في الفلاة وطرف لها في البحر الأجاج ، يجري اليها ما جرى في مثل مرىء النعامة دارنا فغمة ، ووظيفتنا ضيقة ، وعددنا كثير ، وأشرافنا قليل ، وأهل البلاء فينا

(7) ابن الفقيه ١٦٥ .
(8) فتوح البلدان ٣٥٥ ، وانظر ابن الفقيه : البلدان ١٨٩ ، ١٦٦ ، ٣٥٥ .

كثير ، ودرهمنا كبير ، وقفيزنا صغير ، وقد وسّع الله علينا وزادنا في أرضنا فوسع علينا يا أمير المؤمنين ، وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها ، فنظر الى منازلهم التي كانوا بها الى ان صاروا الى الحجر فنفلهموه وأقطعهموه ، وكان سائر ما كان لآل كسرى في أرض البصرة على حال ما كان في أرض الكوفة ينزلونه من أحبوا ويقتسمونه بينهم ، لا يستأثرون به على بدء ولا ثنى ، بعدما يرفعون خمسه الى الوالي ، فكانت قطائع أهل البصرة نصفين نصفها مقسوم ، ونصفها متروك للعسكر وللاجتماع ، وكان أصحاب الألفين ممن شهد القادسية ثم أتى البصرة مع عتبة خمسة الاف ، وكانوا بالكوفة ثلاثين الفا ، فالحق عمر اعدادهم من أهل البصرة من أهل البلاء في الألفين حتى ساواهم بهم ، الحق جميع من شهد الأهواز » .(٩)

ان نص الطبري يفصل في الأحوال السكانية ومعالجة عمر لها وهو يذكر المقارنة مع الكوفة ، في حين يذكر البلاذري المقارنة مع أهل الامصار .

غير أن النصين يتفقان على ما كانت عليه منطقة الكوفة من الأعمار وكثرة الموارد الزراعية ، ووفرة المياه العذبة .

المياه

تفردت البصرة بكون المنطقة التي تأسست فيها كانت في حينها منعزلة نسبياً بما يحيطها من البطائح في الشمال ، والصحراء في الغرب ، والبحر في الجنوب، ومنطقة الأحواز بما فيها من سباخ وحمى في الشرق ، وأكثر أرضها ملحية سبخة ، ولم تكن قربها مدن كبيرة كالتي كانت قرب الكوفة أو دمشق أو الفسطاط ، ولم تتوفر فيها عند التأسيس المنتوجات الزراعية والصناعية ،

(٩) الطبري ١ / ٢٥٣٩ ـ ٢٥٤٠ ؛ والمقصود من « أصحاب الألفين » الذين عطاؤهم ألفى درهم في السنة ؛ وانظر عن العطاء واضافة كتابنا « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » .

ولم تكن في منطقتها حركة تجارية واسعة ، ولم تكن اهميتها العسكرية الكبيرة توازي احوالها الاقتصادية المتدنية . والواقع أن القوات الاسلامية التي قاتلت فيها في مطلع أيام الفتوح لم تكن كبيرة كالتي قاتلت في جبهة الكوفة والجبهات الاخرى ، غير أن عبء القتال عليها كان كبيراً ، كما أن عددها سرعان ما تزايد فتطلب معالجته ، وهو ما نبّه عليه الأحنف وأدركه عمر فعمل على معالجته .

قال محمد بن عمير بن عطارد « إن الكوفة قد سفلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البصرة وعمقها ، فهي مدينة جريعة عذبة ثرية ، اذا اتتها الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رصراص الكافور ، واذا هبت الجنوب جاءتنا بريح السواد ووردة وياسمينه وأترجه ، وماؤنا عذب ، وعشبنا خصب » .(١٠)

اما مشكلة الماء فهي ذات جانبين أحدهما أن البصرة تأسست بعيدة عن مجرى شط العرب ، وهو النهر الرئيسي ، والثانية هي ملوحة مائها ، وقد عولجت مشكلة البعد بشق نهري الابلّة ومعقل ليوصلاها بشط العرب ، أما الملوحة فظلت مشكلة مستعصية العلاج ، خاصة وان الأمطار فيها قليلة .

وقد أشارت عدة أقوال الى أحوال الماء في البصرة ، فقال الخليفة علي بن ابي طالب «أرضكم أبعد الارض من السماء ، وأبعدها من الماء ، وأسرعها خرابا وغرقا » (١١) .

وقال محمد بن عمير العطاردي لعبدالملك بن مروان ان الكوفة «جاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها» (١٢) .

(١٠) عيون الاخبار ٢٢٠/١ .
(١١) عيون الاخبار ٢١٧/١ ، ابن الفقيه : البلدان ١٩ (مخطوطة مشهد) .
(١٢) عيون الاخبار ٢٢٠/١ ، مروج الذهب ١٥١/٣ .

وكان زياد بن أبي سفيان يقول «مثل الكوفة كمثل اللهات يأتيها الماء ببرده وعذوبته ، ومثل البصرة كالمثانة يأتيها الماء وقد تغير وفسد» (١٣) ، ولعل ابن عياش اقتبس هذا القول فأجاب به ابا بكر الهذلي عندما فاخره عند أبي العباس السفاح حيث قال «انما البصرة من العراق بمنزلة المثانة من الجسد ، ينتهي اليها الماء بعد تغييره وفساده ، مضغوطة قبل ظهرها بأخشن أحجار الحجاز وأقلها خيرا ، مضغوطة من فوقها ببطيحتها ، وان كانوا يستعذبون ماءهم ، ولولا ذلك ما انتفعوا بالعيش ، ومضغوطة بالبحر الاخضر في أسفلها، وانما أهل البصرة بمنزلة الرسل لنا ، ومحل الكوفة محل اللهوات واللسان من الجسد ، وموضعها في صدور الارضين ينتهي اليها الماء ببرده وعذوبته ويتفرق في بلادنا ، ويجوز بالعذبة الزكية : الفرات ودجلة ، والبصرة من العراق بمثابة المتانة من الجسد (١٤) .

ولاريب في أن وصول المد اليهم أعانهم على الري وميزهم على الكوفة حيث «ان الماء يغدو عليهم اذا غدوا الى ضياعهم فيأخذونه اذا أرادوا ، وان استغنوا عنه حجبوه(١٥) ، غير أن اكثر ما يأتي من البحر ماء مالح « وبحسبك أن السمك في نهرها لايصبر على ملوحة الماء حتى ينتقل ، فاذا كان سمك البحر لايصبر فكيف ينبغي لذوي العقول ان يفخروا به» (١٦) .

وكان أهل البصرة يعانون من نقص الماء العذب للشرب «فلم ينقطع أعناقهم من العطش ، كلا يشربون حروتين الا بالمنجنون والابل ، فان عطب بعير أو انكسرت منجونة أو ابطأ الموكل بذلك تعطلت السقايات . وانما يقيم لهم الماء ساعة في أول النهار وساعة في آخره ، وما أخذ من أهل البصرة يشرب

(١٣) لطائف المعارف ١٦٧ ، عيون الاخبار ١ / ٢٢٠ .
(١٤) ابن الفقيه ١٦٨ .
(١٥) ابن الفقيه ٣٢ (مخطوطة مشهد) .
(١٦) ابن الفقيه ٢٨ (مخطوطة مشهد) .

الماء العذب الا أن يتصدق به عليه ، ومتى كثر عليهم المـاء خـافوا الغرق وضربوا الفساطيط على المكان الذي يخشونه ، وإن قل عطشوا حتى يمزجوا الماء بالخل من ملوحته ، وان المريض منهم ليقال له ماتشتهي ؟ فيقول المـاء العذب ، وهم يسمون ماءنا (الكوفة) الحي ، واذا قدم الغائب وكان طريقه على الماء العذب أخذ منه ليفرقه هدايا على أقاربه وأهله وأخوانه .

ونقل عن ابن عيّاش في مفاخرتـه لأبي بكر الهذلي أمـام ابي العباس السفاح : انما الكوفة مثل اللهاة من البـدن ، يأتيها المـاء ببرده وعذوبته ، والبصرة بمنزلة المثانة يأتيها الماء بعد تغيره وفساده[17] .

وذكر ابن الفقيه « لم يزل أهل البصرة يشربون المـاء المالح حتى وليها عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز فحفر لهم نهراً من البطيحة معهم يسمونه نهـر ابن عمر وفيه يقول بشّار في شعر طويل :

لا نشرب المـاء إلا قـال قائلنـا
نعم الأمـير فداه السـمع والبصر
روّى من العـذب هامـات مـودة
قد كان ازى بهن الملـح والـكدر

وقد أجمل المسعودي قضية مـاء الكوفة والبصرة فقال « ولأهـل البصرة وأهل الكوفة ومن شرب من دجلة مناظرات كثيرة في مياههم ومنافعها ومضارهـا .

منها ما عاب به أهل الكوفة أهل البصرة فقالوا : ماؤكم كدر زهك زفر، فقال أهل البصرة من أين يأتي ماءنا الكدر وماء البحر صاف وماء البطيحـة صاف ، وهما يمتزجان وسط بلادنا ، قال الكوفيون من طباع المـاء العـذب

(١٧) ابن الفقيه ٢٨ (مخطوطة مشهد) .

الصافي اذا خالط ماء البحر صار جميعا الى الكدورة ، وقد يروق الانسان ماء اربعين ليلة فاذا جعل منه شيئا في قارورة ازبد وتكدر .

وقد افتخر أهل الكوفة بمائهم الذي هو الفرات على ماء دجلة وهو ماء البصرة ، فقالوا ماؤنا أعذب المياه واغذاها ، وهو اصح للاجساد من ماء دجلة ، والفرات خير من النيل ، فأما دجلة فان ماء يقطع شهوة الرجال ويذهب الصهيل الخيل ويذهب بصهيلها ، ولا يذهب بصهيلها الا مع ذهاب نشاطها ونقصان قواها ، وان لم يتدسم النازلون عليها أصابهم نحول في عظامهم ويبس في جلودهم . وسائر من نزل من العرب على دجلة لا يكاد يسقون خيلهم منها ويسقونها من الآبار والركاء لاختلاط مياهها واختلاف أنواعها إذ ليست بماء واحد لمصب الأنهار اليها كالزابين وغيرهما ، وسبيل المشروب غير المأكول ، لان اختلاف المأكل غير ضار ، واختلاف الأشربة والنبيذ وغيره من الأنبذة اذا شربه الانسان كان ضاراً ، واذا كان فضيلة ماءنا على دجلة فما ظنك بفضيلته على ماء البصرةو هو يختلط بماء البحر ومن الماء المستنقع في اصوله القصب الهروى ، وقد قال الله تعالى « هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » والفرات أعذب المياه عذوبة ، وانما أشتق الفرات لكل ماء عذب من ماء .

وقد اتينا على وصف جميع ذلك في كتابنا أخبار الزمان ، وكذلك أتينا على خواص الأرض والمياه فصول السنة وانقسام الأقاليم وما لحق بهذه المعاني في ما سبق من كتبنا على الشرح والايضاح ، وذكر في هذا الكتاب من جميع ذلك ايضا .(١٨)

المنتوجات الزراعية :

ذكر الأحنف أن البصرة تأسست في رقعة ضيقة يحصرها البحر من الشرق والصحراء من الغرب ، وأن أرضها سبخة غير منبتة ولا تكون مراعي للمواشي

(١٨) مروج الذهب ٣/٣٣٠ ــ ٣٣٢ .

« ليس لنا زرع ولا ضرع » ، وانها تستورد حاجاتها من الغذاء وغيره من مسالك ضيقة .

غير أن الضرورات العسكرية قضت بابقاء المدينة حيث تأسست ، ودفعت الى معالجة هذا العيب الخطير الناجم من عدم توفر المنتوجات الزراعية الضرورية لاعالة أهلها ، وقد تم ذلك بعمل جدي واسع في إعمار الأراضي الواقعة على ضفاف شط العرب وفي اطراف البطيحة ، وقد بدأ هذا العمل منذ زمن خلافة عمر بن الخطاب ، وتوسع في زمن خلافة عثمان ومعاوية ، فشقت الأنهار[1] ، وكسحت السباخ[2] ، واستعملت الأسمدة الحيوانية[3] فوفرت للناس ما يحتاجونه من المواد الغذائية ، وقال خالد بن صفوان « نحن منابتنا قصب ، وانهارنا عجب ، وثمارنا رطب ، وأرضنا ذهب » .

وذكرت المفاخرات « رطب البصرة ، ليس في الدنيا اكثر ولا الذمنة »[4] كما ذكرت فيها رطب الآزاد[5] .

اما الكوفة فذكرت من تمورها المشران والذسيان والهيرون والآزاد والعنبر[6] ، كما ذكر رطب المشان[7] وذكر من اعنابها الرازقي والسوناي والخمري[8] .

التجارة :

واشتغل اهل البصرة بالتجارة التي تطورت كثيرا بعد تكون الدولة

---

(1) انظر : فتوح البلدان ٣٥٦ فما بعد .
(2) عن كسح في القرن الثالث الهجري انظر : الطبري ٣ /١٧٤٦ فما بعد .
(3) ابن الفقيه ١٩ ، ٣٦ (المخطوط) ، عيون الاخبار ٢١٧/١ ، البيان والتبيين ٢ / ٩٣ .
(4) ابن الفقيه ٣٣ (المخطوط) عيون الاخبار ٢٢١/١ .
(5) ابن الفقيه ١١٦ .
(6) ابن الفقيه ١٧٥ .
(7) ابن الفقيه ١٦٦ .
(8) ابن الفقيه ٣٣ .

الاسلامية ، التي وحدت بلاداً واسعة وأزالت الحواجز المرقلة ، وارتفع مستوى معيشة السواد الأعظم ، وظهرت مراكز جديدة للاستهلاك ، فكانت دافعاً لانماء الصناعة والعمل والتنقل والنشاط الاقتصادي والتجارة مما كان يقرّه الاسلام وتشجعه الدولة .

وصارت البصرة مركزا لتجارة خراسان وأقاليم جنوب الهضبة الايرانية، وخاصة مع بلاد الحجاز ، ومع العراق ومصر . واشتغل أهلها بالتجارة البحرية .

وقد أنمى كل ذلك الثروة في البلاد ، ولكنها ثروة لاتقوم على منتوجات البصرة ، وانما على المتاجرة مع الأقاليم المنتجة وبذلك تفوقت في هذا الميدان على الكوفة . وقد أشارت بعض نصوص المفاخرات الى ذلك فيروى ان الخليفة علي بن ابي طالب لما قدم البصرة وانتصر في موقعة الجمل خطب الناس وكان مما قاله انه سمع الرسول (ص) يقول انه ستقوم البصرة «وتاجرها أعظم الناس تجارة»[٩] .

وذكروا أن أهل البصرة «أبعد في الارض آثارا ، وأكثر فتوحاً وأبلغ خطيبا ، وأكثر دينا »[١٠].

ووصف خالد بن صفوان الابلّة فقال «ما رأينا أرضا مثل الأبلّة أقرب مسافة ولا أعذب نطفة ولا أوطأ مطية ، ولا أربح لتاجر ولا أحفى لعابد»[١١].

ويروى المسعودي أن الأحنف بن قيس قدم الكوفة في زمن ولاية مصعب بن الزبير ، فجعل يفاخر بالبصرة ، فقال له عبدالملك بن عمير « الكوفة اغذى وأمأ وأفسح وأطيب ، فقال رجل والله ما أشبه الكوفة إلا بشابة

(٩) عيون الاخبار ٢١٦/١ .
(١٠) ابن الفقيه ١٩ (المخطوطة) .
(١١) عيون الاخبار ٢٢١/١ .

صبيحة الوجه كريمة الحسب ولا مال لها ، فاذا ذكرت حاجتها فكف عنها طالبها ، وما أشبه البصرة الا بعجوز ذات عوارض موسرة فكف عنها طالبها .

فقال ، الأحنف : أما البصرة فان أسفلها قصب ، وأوسطها خشب ، وأعلاها رطب ، نحن أكثر ساجاً وعاجا ودياجا ، ونحن أكثر قندا ونقدا»[١٢].

ويروى أنه قال «نحن أبعد سرية ، وأعظم منكم بحرية ، وأغذى منكم برية »[١٣] .

ويروي هشام بن محمد الكلبي عن ابي عبدالله النخعي أن الحجاج وفد على عبدالملك ومعه أشراف أهل المصرين وتذاكروا عنده البلدان فقال خالد بن صفوان «أصلح الله الامير نحن أوسع منهم (من الكوفة) برية ، وأسرع منهم في السرية ، وأكثر منهم قندا وعاجا وساجا ، ماؤنا صفو ، وخيرنا عفو ، لايخرج من عندنا الا قائد وسائق وناعق .

فقال الحجاج أصلح الله أمير المؤمنين اني بالبلدين خبير وقد وطأتهما جميعا .. أما البصرة فعجوز شمطاء ذفراء بخراء أوتيت من كل حلي وزينة ، وأما الكوفة فشابة حسناء جميلة لا حلي لها ولا زينة . فقال عبدالملك فضلت الكوفة على البصرة »[١٤] .

ولما تذاكروا عند زياد البصرة والكوفة قال زياد «لو ظلت البصرة لجعلت الكوفة لمن دلني عليها»[١٥] .

---

(١٢) مروج الذهب ٣/٣٣٠ — ١ .
(١٣) عيون الاخبار ٢/٢١٧ ، البيان والتبيين ٢/٩٣ .
(١٤) عيون الاخبار ١/٢٢٠ ، ٣/١٥١ ، لطائف المعارف ١/٣٥٧ ، ١٠٦ ، ابن الفقيه ١٩٩ .
(١٥) عيون الاخبار ١/٢١٦ .

الازدهار المادي والمعاشي :

وقد أشارت المفاخرات الى ثروة أهل البصرة ورخص الأسعار فيها ففي المناظرة أمام ابي العباس السفاح فخر أهل البصرة بأنهم «أكثر أموالا وأولادا، وأطوع للسلطان وأعرف برسوم الاسلام»(١٦) .

وذكر ابن الفقيه عن رخص الأسعار فيالبصرة أن «الجائع يأكل خبز الأرز والصحناة ولا ينفق في الشهر الا درهمين ، وان الغريب يتزوج بشق درهم ، والمحتاج لا عيلة له ما بقيت استه يخرا ويسلح .

وذكر ابن الفقيه أن أهل البصرة « أطيب ثمارا وأكثر أشجارا وأكرم أنهارا »(١٧) .

وذكر خالد بن صفوان عن أهل البصرة «يغدوا قانصا فيجيىء هذا بالشبوط والشيم ، ويجيىء هذا بالطير والظليم ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً وخزاً وديباجاً وبرذوناً هملاجاً وخريدة مغناجاً ، بيوتنا الذهب ونهرنا العجب »(١٨) .

وفي البصرة « جعلوا حب الأرز في الموازين ، واربع حبات ارز حبة شعير »(١٩) .

وأشارت المفاخرات الى بخل أهل البصرة ، فذكر الهمداني في ما نقل من المفاخرة أمام المأمون « وليس في الارض بصري يدخل الكتاب الا وله كرسي يجلس عليه لئلا تأكل الارض ثوبه » .

ومن بخلهم أن صاحب باقلى كان في بعض سككهم فاخرجوه وقالوا

(١٦) ابن الفقيه ١٦٧ .
(١٧) عيون الاخبار ١/٢٢١ ، ابن الفقيه ١٩ (مخطوطة مشهد) .
(١٨) ابن الفقيه ١٩٢ .
(١٩) ابن لالفقيه ١٦ (مخطوطة مشهد) .

تعلى صبياننا الاسراف ، ويقتلهم بالجوع لانهم يشترون منك بخبزهم لباقي .

وأخرجوا غريباً كان نازلا في بعض سككهم ، فقال لهم أي شيء أجرمت اليكم ، قالوا تأكل اللحم في كل يوم [٢٠] .

وأوردت المفاخرات نصوصاً متناقضة عن دوام الاعمار في البصرة ، فيروي الهمداني عن كعب الأحبار أنه قال لرجل من أهل البصرة « إذا رأيت نخلها قد أطعم فأخرج منها ، قال فان لم أستطع ذاك ، قال فاذا رأيت اجامها قد اتخذت بساتين قال فاخرج منها ، قال فان لم استطع ذلك ، قال اذا تطاول أهلها في بناء المدن فاخرج قال فان لم استطع ، قال فعليك بضواحيها واياك وسباخها فانه سيكون بسباخها خسف » .

وكان كعب الأحبار يقول لتشبعن ابضع من النوم في مسجد البصرة والقرى حولها عامرة .

وقال ابو غيلان : البصرة يسلط عليهم القتل الأحمر والجوع الاعبر .

وكان ابن عمر يقول : البصرة أسرع أرض الله خراباً وأخبثه ترابا .

وقال قتادة لتخربن البصرة وأهلها كثير ، قيل له وكيف ذلك ؟ قال يظهر منافقوها على مؤمنيها فيخرجون منها رجالا وركبانا .

وكان خالد بن ميمون يقول : البصرة أشد الأرض عذاباً وأسرعه خراباً وشره تراباً ، وذكر ايضا « كان أمير المؤمنين (علي) يقول لنفر من البصرة او لتحرقن إلا بيت مالها ومسجدها ، وقال عبدالله الضبعي سمعت عليا (ع) يقول : ويحك بالبصرة لتفرقن او لتحرقن حتى يرى بيت مالك ومسجدك كجؤجؤ العنية » .

وقال في خطبته بعد الجمل « أرضكم أبعد الأرض من السماء ، وأقربها

---

(٢٠) ابن الفقيه ٢٦ (مخطوطة مشهد) .

من الماء ، وأسرعها خراباً وعزقاً »[٢١] .

غير أن المفاخرات تروي نصوحاً عن دوام الإعمار في البصرة .

فيروي عبدالله بن عمرو بن العاص قال ان البصرة « هي أبطأ الأرض خراباً لأنها أقومها قبلة وهي حياد البيت والمقام والحجر وزمزم ، فهي أبطأها خراباً » .

ويروى عن ابن عمر انه قال انها أبطأ الأرض خراباً [٢٢].

وذكر المسعودي « وقد طعن أيضا أهل الكوفة على البصرة فقالوا : البصرة أسرع الأرض خراباً وأخبثها ترابا ، وأبعدها من السماء ، وأسرعها غرقاً . وقد أجاب أهل البصرة أهل الكوفة عما سألوا عنه وعابوهم به وكذلك من شرب من دجلة ، وعابوا أهل الكوفة وذكروا عيوبها وما يؤثر عن سكانها من الشح على المأكول والمشروب والغدر وقلة الوفاء »[٢٣] .

مراكز الحكم والادارة :

وفخر أهل الكوفة بان مدينتهم كانت مقرا للملوك والأمراء والخلفاء فقال أحمد بن هشام في حضرة المأمون « ومن فضل الكوفة على البصرة ان ملوك العرب والعجم طافوا الآفاق واختاروا البلاد ، فوقع اختيارهم على الكوفة او ما يقرب منها من ذلك :

الأنبار نزلها دارا بن دارا وجذيمة الابرش .

ومنها بابل نزلها بختصر ، وبها كان قبله وبعده من الملوك .

ومنها مدائن كسرى نزلها اردشير بابك ومن بعده من ملوك الفرس إلى يزدجرد .

---

(٢١) ابن الفقيه ١٦ ــ ١٧ ، ١٩ (مخطوطة مشهد) .
(٢٢) ابن الفقيه ١٥ (مخطوطة مشهد) .
(٢٣) مروج الذهب ٣٣٢/٣ .

ومنها الخورنق نزله بهرام جور والنعمان بن الشقيقة وغيرهما من ملوك العرب .

ومنها الحيرة نزلها عمرو بن عدي وولده بعده الى عمر ، وقابوس ابن المنذر ، والنعمان بن المنذر وأياس قبيصة حتى جاء الله بالاسلام .

وانما كانت البصرة منازل نزلها الجند مثل منجشان : صاحب المنجشانية ومن اشهد من السفلة والاتباع(٢٤) .

وذكر ابن الفقيه « ونزل الكوفة من الخلفاء والأئمة علي والحسن ، ومن الملوك والخلفاء معاوية وعبدالملك وابو العباس وابو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد ، وكان بها عمال العراق »(٢٥) .

وقال أحمد بن هشام في مناظرته بحضرة المأمون :

« ولم يزل عمال العراق ينزلون الكوفة يرونها أعذب ماءً وأصفى هواءً وأطيب تراباً .. وما نزلها من امراء العراق أحد الا الحجاج مديدة ، ثم تحول الى واسط ، ومسلمة بن عبدالملك أياماً حين قتل يزيد بن المهلب » .

وأما الكوفة فأكثر الولاة كانوا ينزلونها ويقيمون بها ، ولا يمضون الى البصرة الا لحادثة تحدث او لفتق عدد ، وكان خالد بن عبدالله القسري يسميها الذفراء ، وكذلك يوسف بن عمر .

ولما ولي يزيد بن عمر بن هبيرة العراق لم يخير شيئاً على الكوفة وبنى عند قنطرتها مدينة وسماها الهبيرية ، وهي المعروفة اليوم بقصر ابن هبيرة ، ولم يزل مقيماً بالكوفة حتى جاءت الدولة الهاشمية فتحول الى واسط .

وفي الكوفة ظهرت دولة بني العباس ، وفيها كان وزيرهم وبها عقد ملكهم . ثم نزل المهدي الكوفة وبنى القصر الابيض بالحيرة ، وهو الذي كان

(٢٤) ابن الفقيه ٢٦ ـ ٢٧ (المخطوط) .
(٢٥) ابن الفقيه ١٦٥ .

النعمان بن المنذر ينزله . وبنى بها قصر ابي الخصيب على طرف النجف .

ولا يحتج علينا اهل البصرة ان واحدا من ولاة العراق نزلها الا زيادا وعبيد الله ابنه ، فانها كانت وطنهما ومنشأهما ، ولم يكونا على تتنها وملوحة مائها وشدة حرها وكثرة بقها وكدرورة هوائها ، وفساد طينها يطيلان المقام بها ، بل اكثر مقامهما بالكوفة(٢٦) .

الاعلام البارزون :

وكان البارزون ممن نزل المصرين موضوع فخر ، فيروي ابن الفقيه ان مظر بن خليفة افحم قتادة حين قال « دخل الكوفة سبعون بدريا ، ودخل البصرة عتبة بن غزوان »(١) .

وفخر أهل الكوفة برجال تميزوا بصفات محمودة « ومن أسخياءالكوفة هلال بن عتاب وأسماء بن خارجة وعكرمة بن ربعي الفياض. ومن فتيانها خالد بن عتاب ، وأبو سفيان بن عروة بن المغيرة بن شعبة ، وعمرو بن محمد ابن حمزة » .. ومنهم « أشجع الناس الأشتر ، وأسخاهم خالد بن عتاب ، واحلمهم عكرمة الفياض ، واعبدهم عمرو بن عتبة » .

غير أن البصريين فخروا بأن منهم أحلم الناس الأحنف بن قيس ، وأحملهم بحمالة إياس بن قتادة ، وأسخاهم طلحة بن عبدالله بن خلف ، واشجعهم عباد بن حصين والحريش ، وأعبدهم عامر بن عبد القيس(٢) .

وفي مناظرة الكوفيين والبصريين أمام ابي العباس السفاح فخر البصريون بأشراف في عشائرهم ، وهم الأحنف بن قيس في تميم ، والحكم بن الجارود في عبدالقيس ، ومالك بن مسبع في بكر ، وقتيبة بن مسلم في قيس ، وفخر الكوفيون بمحمد بن عمير بن عطارد في تميم ، وبكل من النعمان بن مقرن ،

---

(٢٦) ابن الفقيه ٢٨ (المخطوط) .
(١) ابن الفقيه ١٦٦ .
(٢) ابن الفقيه ١٦٧ .

وحسان بن المنذر الضبي ، وعتاب بن ورقاء ، وشبث بن ربعي ، وعكرمة بن ربعي التميميان ، وبخالد بن معمر ، وشقيق بن ثور ، وسويد بن منجوف ، وحريث بن جابر ، والحضين بن المنذر ، ومحدوج الذهلي ، ويزيد بن رويم والقعقاع بن شور .

وفخر البصريون امام المأمون باربع بيوتات من بيوتات العرب ليس بالكوفة مثلها : بيت بني الجارود ليس في عبدالقيس الكوفة مثلهم ، وبيت بني المهلب ليس في ازد الكوفة مثلهم ، وبيت بني مسلم (الباهلي) ليس في قيس الكوفة مثلهم ، وبيت بني مسمع ليس في بكر الكوفة مثلهم[٣] .

وقابلهم أهل الكوفة بالفخر ببيت النعمان بن المقرن وحذيفة بن اليمان .

وفخر الكوفيون بفرسانهم في الفتوح ، ومنهم أربعة فرسان قبل الاسلام أيضا وهم عمرو بن معدي كرب والعباس بن مرداس السلمي ، وطليحة بن خويلد الاسدي ، وابو محجن الثقفي ، ثم برز منهم في الاسلام مالك بن الحارث الأشتر النخعي ، وسعد بن قيس الهمداني ، وعروة بن زيد الطائي ، وعبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي . وابو عبدالله الجدلي[٤]

وفي المناظرة امام المأمون اتهم الكوفيون أهل البصرة بأنهم « فتقوا فتوقا في الاسلام ، وابتدعوا من الضلالة بدعا وبنوا النار مناراً[٥] ، وأوردوا على ذلك حوادث فردية منها شهادة ابن ابي بكرة على المغيرة التي ردها عمر بن الخطاب ، وتكذيبهم حديث كلاب الحوأب ، والاقرار بخيانة بعض ولاة الجباية ، وموقفهم في معركة الجمل ، واقرارهم بنسبة زياد الى أبي سفيان دون امه ، وعقدهم حلفا بين الأزد وبكر بعد موت يزيد مما يخالف قول الرسول (ص) « لا حلف في الاسلام » ، وانهزامهم أمام الخوارج ،

(٣) ابن الفقيه ٣٦ (المخطوط) .
(٤) ابن الفقيه ١٧٠ — ١٧١ .
(٥) ابن الفقيه ٢١ (المخطوط) .

واشتهار بعض أفرادهم في الحمق ومنهم جحشويه وهنبقه ، واشتهار تميم بالبخل وبكر بالكذب ، والازد بالموق ، وطعنوا بتصرفات الأحنف ووصفوها بالحمق(٦) .

وأشار ابن شبرمة الى تباين اخلاق أهل كل من المصرين فقال « لنا (أهل الكوفة) أحلام ملوك المدائن وسخاء أهل السواد ، وظرف أهل الحيرة ، ولكم (أهل البصرة) سفه السند ، وبخل الخوز وحمق أهل عمان »(٧) .

التفاخرات في الاسهام الفكري :

كانت السمة العسكرية هي المميزة لأهل كل من الكوفة والبصرة العرب، فكانوا مقاتلة أنيطت بهم واجبات القتال في الفتوح وتوسيع رقعة الدولة وحماية حدودها وتثبيت الأمن فيها ، وقد قدموا بهذه المسميات وتمجيدها من مواطنهم الاصلية في جزيرة العرب ، وظلوا محافظين عليها ومعتزين بها أمداً غير قصير ، وتجلى هذا بفخرهم في انجازاتهم العسكرية وانتصاراتهم في المعارك واشادتهم بمن برز في الفروسية والشجاعة .

غير أن الاسهام في المعارك ، وتقدير الفروسية ، والاهتمام بالحياة العسكرية لم تقض على ما كانوا يعنون به منذ ايام الجاهلية في الشعر ، والتعبير الدقيق عن المحسوسات ومظاهر الحياة المادية التي تدركها حواسهم من المشاهدات والمسموعات خاصة ، فضلا عن اهتمامهم بالكلم الطيب وتناقله مع أخبار آبائهم والبارزين من معاصريهم ، مما يكون مادة الانساب والتاريخ.

وجاء الاسلام حين اعتنقوه وانضموا الى دولته باطار اضافي جديد للحركة الفكرية واذكاءها . وقد شجعت الدولة دراسة القرآن الكريم ، كما نشطت عوامل متعددة دراسة مواضيع متصلة بالدين الاسلامي الواسع

(٦) ابن الفقيه ٢٢ ــ ٢٣ (المخطوط) .
(٧) ابن الفقيه ١٨ (المخطوط) .

النطاق ، غير ان هذا لم يقض على الميادين الفكرية التي كان عرب الجزيرة يعنون بها ، وتابعوا عنايتهم بعد استقرارهم في الامصار ، مما زاد في نشاطها وتوسعها ، وخاصة بعد تناقص المعارك واستقرار حدود الدولة ، وبذلك نمت جوانب متعددة من الحياة الفكرية وخاصة في الشعر واللغة والأدب ، وفي قراءة القرآن وتفسيره ، ثم الحديث والفقه وأخبار الماضين ، كما جرى اهتمام في بعض قضايا العقائد الدينية والسياسية ، وشارك في نشر هذه الدراسات وانماءها اعداد كبيرة من الناس ، وبرز في عدد غير قليل من هذه الجوانب أعلام حفظت المصادر اسماؤهم وذكرت مكانتهم وأشارت الى علمهم واسهاماتهم . وكانت الكوفة والبصرة احد المراكز القليلة للحركة الفكرية في الدولة ، منذ صدر الاسلام ، وقد وضع علماؤها فيها اسس توجيهات البحوث في كثير من المواضيع التي ألفت في تطورها مؤلفات كثيرة ، وجرت فيها دراسات حديثة واسعة .

ان قلة المعلومات التي وردت عن العلم والعلماء في مفاخرات الكوفة والبصرة لا تتناسب مع النمو الكبير للفكر فيهما ، ولعل بعض ذلك راجع الى أن العلماء اهتموا بالعلم وتقدمه دون النظر الى مدى الازدهار ، وان علم كل بلد كان مفتوحا للاخرين وليس حكرا لاحدهما ، فعلم البارزين في أية مدينة لم يقتصر تكوينه على علم تلك المدينة ، وانما شارك فيه علماء المدن الاخرى التي رحل اليها أوامه منها الطلبة ، فالمفاخرة في العلم صارت بين فروعه وليس بين رجاله .

ذكرت مصادر المفاخرات اختلاف التوجيهات السياسية بين الكوفة والبصرة ، فكانت الكوفة معروفة بميلها الى العلويين فذكر ابن الفقيه ان من لم يقر بفضل أمير المؤمنين (علي) «فليست الكوفة له بدار»[8] ، وذكر في

(٨) ابن الفقيه ١٩٦ .

تعداده مفاخر الكوفة « ليس في الارض بلد جمع أهله على حب بني هاشم الا الكوفة ، وما قتل أحد من بني هاشم أجمع في شرق ولا غرب الا حوله قتلى من أهل الكوفة »(٩) .

وقد عيرهم البصريون بأنهم هم الذين قتلوا علياً وولده وولد ولده ، وأخرجوا الحسن بن علي بعد بيعتهم له حتى قتل ، وأنهم ، غدروا بعلي والحسين(١٠) ، و «غدرهم بعلي والحسن والحسين والولاة»(١١) وبهذا عيرتهم زينب بنت علي وسكينة بنت الحسين(١٢) .

ومما عُيرت به الكوفة ظهور عدد من ذوي الآراء الزائفة من المتنبين ، والمختار بن عبيد الثقفي ، والخناق ، والمغيرة بن سعيد ، وراشد الهجيمي ، وهند الأفاكة (١٣) .

وذكر في المفاخرات عدد ممن أنجبته الكوفة في التقوى والفقه ، ومنهم عبدالله بن مسعود ، وشريح القاضي ، وأويس لقرني ، والربيع بن خيثم ، والأسود بن يزيد ، وعلقمة ، ومسروق ، وهبيرة بن يريم ، وأبو ميسرة ، وسعيد بن جبير ، والحارث الأعور .

أما البصرة فذكرت المفاخرات عددا من رجال الفكر فيها ففي المفاخرة أمام المأمون ذكر علي بن هشام ان «أهل البصرة أبعد في الأرض اشاراً وأكثر فتوحاً وأبلغ خطياً وأكثر أدباً»(١٤) .

وذكر في المفاخرات للبصرة «فضل عثمان وفضل الحسن البصري ، وابن

(٩) ابن الفقيه ٣٠ (مخطوطة مشهد) .
(١٠) ابن الفقيه ١٦٩ .
(١١) ابن الفقيه ١٨٤ (مخطوطة مشهد) .
(١٢) ابن الفقيه ٥٠٤ (مخطوطة مشهد) .
(١٣) ابن الفقيه ٢٠ (مخطوطة مشهد) .
(١٤) ابن الفقيه ١٩ .

سيرين ، ومالك بن دينار ، والخليل بن أحمد »[15] .

وذكر أمام المأمون في «النحو والعروض أبو الأسود والخليل» وفي الرواية خالد بن كلثوم ، وابو بكر الهذلي .

ومن خطبائهم صعصعة بن صوحان والقعقاع بن عمرو الأسدي ، ومصقلة ابن رقبة العبدي ، ومحمد بن المفضل السكوني وابنه .

ومن شعرائهم جرير والفرزدق وذو الرمة ويزيد بن الحكم والعجاج بن رؤية ، وابو النجم .

وذكرت في المناظرة الكتاب الذين أصلهم من البصرة وهم صالح بن عبدالرحمن كاتب الحجاج بن يوسف ، والمغيرة بن أبي أوفى كاتب المهلب ، وشيبة بن أعين ، وقحذم مولى ابن بكرة كاتبي يوسف بن عمر ، وهارون بن ياسين كاتب خالد بن عبدالله القسري ، وجبلة بن عبدالرحمن ، والقاسم بن مسلم ، وعبد ربه بن أبي أيوب ، وابن أبي عبيدة ، وعمير بن أبي معن ، والمغيرة بن عطية وأخوه سعيد بن عطية .

أجاب الكوفيون على مفاخرة البصرة فقالوا أن لأصحابهم «الفصاحة في العلم بالقرآن والاعراب به والمعرفة بوجوه القراءات ، حتى ان أكثر القراء يقرأون بقراءتهم» وذكروا أن منهم «الفقهاء والعلماء والأدباء والفصحاءوالنجباء والشجعان والفرسان المذكورون ، والشعراء المعروفون» .

وذكر أن الكوفة من رجالهم حماد الرواية ، والمفضل الضبي وخالد بن كلثوم، وقبيصة بن دؤيب وعبدالملك المعيطي وعبدالله بن عياش الهمداني ، والحجاج بن أرطاة النخعي ، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي، وابو مخنف ، والهيثم بن عدي ، والنخار العذري ، وهلال بن كيس الحميري ، وابن لسان الحمي التيمي ، ومحمد بن السائب الكلبي ، وهشام بن محمد ،

(١٥) ابن الفقيه ١٦٦ ، ٢١٩ .

والمنتوف ، والشرقي بن القطامي •

وذكروا من خطباء الكوفة صعصعة بن صوحان ، والقعقاع بن عمرو الأسدي ، ومصقلة بن رقبة العبدي ، ومحمد بن المفضل السكوني •

ومن شعراء الكوفة الشماخ ، ومزرد ، ولبيد ، وعمرو بن شاس ، وضابي البرجمي ، والحطم ، وابو محجن الثقفي وأبو ثمال الأسدي ، وأبو زبيد الطائي ، والنجاشي الحارثي ، وأعشى همدان ، وعمرو بن معدي كرب ، وعدي بن حاتم ، وعروة بن زيد الخيل ، وابن مقبل ، والقطامي ، وكعب بن جعيل ، والجحاف بن حكيم ، وغيرهم من الشعراء المجودين •

وذكر ممن أصله من الكوفة من الكتاب زياد بن عبدالرحمن كاتب الحجاج ، ومسعدة وأعون كاتبي خالد العسري ، ويونس بن مروة كاتب يوسف بن عمر ، وعبدالجبار بن مغيث والهيثم بن مسلم كاتب عيسى بن موسى ، وحماد بن موسى كاتب محمد بن سليمان ، ومنهم كتاب الخلفاء العباسيين الذين لم يكتب لهم أحد من أهل البصرة ، فقد أستكتب المنصور يحيى بن زياد بن عبدالرحمن وضمه الى جعفر ابنه وكذلك عمرو بن كيغلغ وابراهيم ومحمد ابنا حبيش ، وعلي بن يقطين وعمرو بن بزيع كاتب المنصور والمهدي ، ويحيى بن سليمان ومنصور بن زياد ومجاشع بن مسعدة ويوسف بن القاسم كتاب الرشيد ، والحسن بن سهل كاتب المأمون على الخراج ، وعمرو بن مسندة كاتبه على الرسائل ، واحمد بن يوسف على الديوان بالجبل وخراسان ، ومحمد بن عمران على ديوان البريد بالافاق ، وثابت بن يحيى[١٦] •



(١٦) ابن الفقيه ٣٥ ـ ٣٦ •